لقاء

سيمون فتّال مذكّرات طفلة من آخر الأربعينات [3/3]

مُلاقاة الربيع في الغوطة

تنشر «العربي الجديد»، هنا، الجزء الثالث من لقائها مع التشكيلية السورية سيمون فتّال (1942)، التي تستعيد طفولتها الدمشقية أمام الشاعر والمترجم التونسي خالد النجار، الذي التقاها في بيتها الواقع ببلدة إيركي في إقليم بروتاني الفرنسي

باريس ـ **خالد النجار**

في ايركي، القرية البحرية التي تتّكئ على منحدر صخري وفي خلفيتها غابات الصنوبر، جلست مرّة أخرى أُصغي إلى الفنانة سيمون فتّال تعود بالذاكرة إلى دمشق الخمسينيات؛ تروي ـ في توارُدٍ حرّ ـ صوَر طفولتها وشبابها. ليالي رمضان دمشق؛ حدائق فِلَل بيروت الخمسينيات المشتعلة بزهور الجهنّمية؛ الحياة القاسية في مدرسة الراهبات... دمشق، تلك المدينة الأسطورية التي تتغلغل في أحلامها وتمتزج ـ بلا وعيها ـ كملمَح من هويتها، ها هي تستعيدها الآن ونحن في هذا المقهى الصغير في مركز القرية. في مكان بعيد آلاف الكيلومترات عن دمشق.

سيمون فتّال:

«أعود لذكرياتي في تلك السنوات البعيدة من آخر الأربعينيات وأوّل الخمسينيات. تتراءى أمامي صوَر دمشق، وتتتالى غائمةً كالحلم: دمشقُ هبوبِ نسائم المساء؛ رياح الصيف المفاجئة في الخامسة بعد الظهر، كما لو أن هبوباً يهجم فجأة من الصحراء؛ أصوات الباعة في الشوارع ينادون على الخضار وعلى الثمار الدمشقية، مثل الجوز المنزوع القشرة؛ الاستيقاظ بعد إغفاءة الظهيرة ـ التي كنّا نُجبر عليها ـ وأكل الجوز وشرب عصير الليمون البارد؛ التجوال في شارع أبو رمانة لدى هبوط الليل وتناول الصُّبّير (التين الشوكي). كان الباعة يضعون الصُّبّير في صناديق خشبية صغيرة مزيّنة بزهور اصطناعية وفوانيس تشتعل وقطع ثلج، يرتدون بأيديهم قفازات سوداء؛ يزيلون قشر التين الشوكي للمتجوّلين. لم تكن أمّي هي التي تصحبنا؛ كانت ترسلنا مع مريم، المربّية التي كانت تأكل الصبّير إلى أن تسقط مريضة.

دمشق هي صعودي إلى جبل قاسيون وتطلّعي إلى المدينة، إلى ذاك المشهد الذي كثيراً ما غنّاه الشعراء. دمشق المُحاطة على الدائر بالأشجار المثمرة. كانت الغوطة ما تزال قائمةً في ذلك الوقت. ولكن حتى في ذلك الوقت كان يصدمني وأنا أتجوّل في أنحاء الغوطة منظرُ المصانع. منها مصنع «الخُماسية» للنسيج، ويُسَمّى «الخماسية» لأن ملكيته تعود لخمس عائلات تشتغل مع أبي، وكذلك مصنع الإسمنت ـ فماذا نقول اليوم؟

دمشق هي نسائم الصباح، الحرارة الجافّة؛ أجل، ذاك المناخ الذي لا نجده في أيّ مكان آخر في العالم. دمشق هي الخروج لمُلاقاة الربيع في الغوطة. كان هذا طقساً يمارسه كلّ الدمشقيّين، إذ يغادرون بيوتهم لرؤية الزهور والأشجار المثمرة. وثمّة لحظات أخرى عشتُها في وحدتي.

دمشق هي ليالي رمضان. أتذكّرُني طفلةً؛ كنت أظلّ في الشرفة أتأمّل صمت المدينة الشامل ساعة الإفطار، لدرجةٍ من الممكن معها سماع صوت ارتطام إبرة فوق الأرض. الناس في بيوتهم والشوارع مقفرة؛ كانت تلك إحدى اللحظات القوية والثرية في حياتي، لحظات العزلة الاختيارية والصمت الشامل الذي يلفّ المدينة ساعة الغروب: نقيض مدن الضجيج اليوم. لقد ظلّ الوصول إلى دمشق ساعة الغروب من اللحظات ذات السحر الغامض...

دمشقُ طقوس رمضان، إذ تذهب مريم لشراء الخبز من الفرن. أتذكّر الحلويات الرمضانية؛ شراء ملابس الأطفال الملوّنة الجديدة في الأيام التي تسبق العيد؛ القصص الدمشقية التي ترويها أم كامل في الراديو. «أم كامل» هي في الحقيقة رجلٌ يتكلّم بلهجة أهل دمشق القديمة، قبل أن تتريّف المدينة. «أم كامل» تروي تاريخ المدينة الاجتماعي، تروي نوادرها وأمثالها وتقاليدها. وإذا ما صدّقنا «أم كامل»، فثمّة أنواعٌ من الحلوى الدمشقية على أعداد ليالي رمضان؛ لكلّ ليلة حلواها المختلفة.

تملّكني في تلك الفترة الشغفُ بالسينما وبالكتب التي كنت أختارها حسب ميولي الشخصية وبدون أيّ تدخّل خارجي. كما تملّكني الشغف بالعزلة؛ كنت منفردة مع نفسي باستمرار، رغم وجود المربّيات والطبّاخة ووالديّ اللذين كانا يتركانني لحالي، هادئةً في غرفتي لساعات طويلة. هكذا انسابت الحياة هادئةً في دمشق. ثمّ، فجأةً، انتُزعت بوحشية من حياتي هذه وأُرسلت إلى مدرسة في بيروت. ووجدت نفسي في زنزانة باردة لا يحميها شيء من الخارج سوى ستارة بيضاء مهتزّة لا تمنع تسرّب البرد. وكان علينا، نحن التلاميذ، أن نقف في صفوف منتظمة ملتزمين الصمت كاملَ الوقت. كنّا بعض الطلبة الداخليّين في هذه المدرسة. جُلُّنا قادمٌ من البلدان العربية: من سورية والأردن والعراق، وبعض البنات من طرابلس في لبنان. أمّا بقية الطلّاب، فقد كانوا خارجيّين، كان أغلبهم من بيروت، فكانوا بالتالي يتناولون الغداء في المدرسة، ولكنْ يعودون في المساء الى بيوتهم. لم تكن هناك تدفئة في المدرسة. كنّا نستحمّ مرّة واحدة في الأسبوع وفي بقية الأيام ننقل الماء الساخن في وعاء صغير للاغتسال في الغرفة.

كنّا نتحدّث الفرنسية بشكلٍ رئيسيّ. كان الطلّاب يسخرون من لكنتي الدمشقية. إضافة إلى كلّ ذلك العناء، كنت أشعر بالبرد كاملَ الوقت، ولم أعد أعرف أين أنا. لقد انتُزعت من منزلي وأصدقائي وطاولتي ونافذتي وشرفتي ومن الفيراندا. وإضافةً إلى كلّ هذا، لم نكن نتمتّع بنفس المعاملة التي يتمتّع بها التلاميذ الخارجيّون. في الواقع، كانت هناك صيغتان وقانونان عشوائيان لمعاملة التلامذة الداخليّين والآخرين. كانت القسوة والظلم اللذان ينظّمان حياتنا لا يُطاقان.

ذات يوم، وجدت نفسي مرّة أخرى في البيت، في سريري. فقد أصبت باليرقان، ولمّا دخلت في حالة إغماء، أرسلوا في طلب والدتي من دمشق. وهكذا، عندما أفقت، وجدت نفسي في سريري. قضيت شهرين في البيت. كان المرض طويلاً جدّاً. كانوا يُطعمونني الأشياء الجيّدة: مربّى المشمش في الصباح، وشريحة لحم مع سلطة شمندر في الظهيرة. حتى والدي الذي لم يكن أبداً يصعد إلى الطابق العُلْويّ، جاء لزيارتي في سريري. بعد شهرين أخبرتني والدتي أن الطبيب يعتقد على الأرجح أن هذا المرض ناتجٌ عن الحزن. وسألتني أمّي: هل تريدين العودة إلى المنزل ومغادرة المدرسة في بيروت؟ لسوء الحظ قلتُ لا. وهكذا رجعت إلى تلك المدرسة وذاك السجن. واصلتُ دراستي هناك حتى البكالوريا. الغريب أن هذا المرض ظلّ في ذاكرتي يجسّد صورة السعادة الكاملة. غريبٌ أمرُ الذاكرة كيف تحوّر الأشياء!

سيمون فتّال

كانت بيروت بالنسبة لي هي الزهور التي تلقاك في كلّ مكان

التطريز فن الدقة؛ كلّ طاقة العالم تمرّ من ثُقب الإبرة

النص الكامل على الموقع الالكتروني

على ضفّة بردى

لا يبدو الكلام كافياً لاحتواء حنين التشكيلية والنحّاتة السورية سيمون فتّال إلى مسقط رأسها الدمشقيّ وسنواتها الأولى فيه. فإضافة إلى حديثها إلى «العربي الجديد» عن تلك المرحلة من عمرها، تقول الفنانة أيضاً هذا الحنين بلغة أُخرى، هي لغة الرسم. حيث مثّلتْ دمشق، وعددٌ من معالمها، موضوعاً لأكثر من معرض لها في السنوات القليلة الماضية، ومنها ذلك الذي أقامته في باريس، العام الماضي، بعنوان «ضفّة بردى» (الصورة).

معرض

إيتيل عدنان استعادة في قرطبة لخطٍّ امتدّ ستين عاماً

بين نهرٍ وجبل

يضيء المعرض، المقام حالياً في قرطبة، ملامح تجربة الفنانة السورية اللبنانية التي رحلت العام الماضي، وتَعدُّد مساراتها بين الرسم والطباعة والنسيج

مدريد ـ **العربي الجديد**

في عام 1961، قدّمت إيتيل عدنان أوّل مجموعة من الكتيّبيات المعروفة بـ«Leporellos»، على شكل أكورديون، والمستمّدة من تقليد اتّبعه الفنانون اليابانيون لإنتاج مطبوعات مطوية في القرن الثامن عشر، وكانت قد ضمّنتها بمجموعة قصائد ونصوص نثرية، مشبّهةً أسلوبها الذي طوّرته لاحقاً بالقول: «كأنني أكتب نهراً». النهر الذي تدفّق في أعمال عدنان (1925 ـ 2021)، سيجاوره في ما بعد جبل تامالبايس، المنظر الذي كانت تشاهده من منزلها خلال االفترة التي عاشتها في سوساليتو بكاليفورنيا خلال الثمانينيات، حيث ظلّت تستحضر هذين العنصرين بأشكال لا حصر لها.

«خلف خطّ الأفق» عنوان معرض إيتيل عدنان الذي افتتح في تشرين الثاني/ نوفمبر من العام الماضي في «مركز الإبداع الأندلسي المعاصر» بمدينة قرطبة، ويتواصل حتى نهاية الشهر الجاري. المعرض الذي انطلق قبل رحيل الفنانة بثلاثة أيام يضمّ ستّيناً من أعمالها، معظمها من العقدين الأخيرين.

ليست هذه الاستعادة الوحيدة للفنانة، إذ تقام حالياً عدّة معارض في «غاليري لولون للفنون المعاصرة» بنيويورك، وفي فرع «مركز بومبيدو» بمدينة ميتز الفرنسية؛ معارض تضيء تجربة استمرّت حوالي ستّة عقود وظّفت خلالها عدنان وسائط مختلفة بما فيها الرسم والتصوير والطباعة والفيديو والخزف والنسيج.

الصدفة التي قادت الفنانة السورية اللبنانية إلى الفن حرفت مسار حياتها من مدرّسة للفلسفة في «جامعة كاليفورنيا الدومينيكانية» بين نهاية الخمسينيات ومطلع السبعينيات، حيث رسمت أشكالها الهندسية التجريدية الأولى والتي تعكس في ظاهرها مناظر طبيعية اعتادت على رؤيتها، لكنها كانت تؤكّد دائماً أنها ترسم عوالمها الداخلية. تبرز عناصر من الثقافة العربية تمسّكت بها عدنان على نحوها الخاص في كتاباتها وأعمالها الفنية، من دون ضجيج وشعارات. أمرٌ عبّرت عنه في مقال بعنوان «أن تكتب بلغة أجنبية»، حين استرجعت كيف كان يُنظر إلى العربية بوصفها لغة «متخلّفة» في المدارس الفرنسية التي تعلّمت فيها بلبنان، وكان التحدّث بها يستوجب العقاب، حتى اصطدمت بفظائع الاستعمار الفرنسي في الجزائر، وأنه لم يعد ممكناً الكتابة بلغة تمارس صراعاً ضدّها.

ثمة حضور أكبر لذاكرتها وتراثها في العديد من أعمالها، خاصّة المنسوجات التي خُصّص لها ركنٌ في المعرض، والتي نفّذت العشرات منها يدوياً من خلال فريق متخصّص عمل معها لسنوات. ويظهر تأثّرها بصناعة السجّاد في الشرق، والإيراني منه خاصّةً، وكذلك في الحروفيات العربية التي استخدمتها في مطويّات عدة تضمّنت قصائد لبدر شاكر السيّاب وأنسي الحاج وعبد الوهاب البياتي وآخرين.

في المعرض، أيضاً، احتفاءٌ بخزفياتها التي شكّلت وسيطاً مهمّاً في رحلتها، حيث أنجزت جدارياتٍ من السيراميك، التي تدور في موضوعها حول الطبيعة، لتطوّر من خلال تقنيّاتها المتعدّدة معجماً بصرياً خاصّاً بها شكّل لها مساحة لا متناهية من حركة الخطوط والإيقاعات، ضمن بحثها حول العلاقة بين الجسد المتشكّل من تضاريس الطبيعة والإنسان وبين الهوية العابرة للأمكنة والثقافات.

يتزامن المعرض مع معارض أخرى تقام في نيويورك وباريس

عمل لـ إيتيل عدنان، زيت على قماش، 30,5x35 سم، 2014 (من المعرض)

شعر

لا نمشي لو لم نكن نحبّ طريقَنا الطويل

بالكاد أُعلّمكَ الغناء سرّاً

محمد شْحابة

غناءٌ ليلي

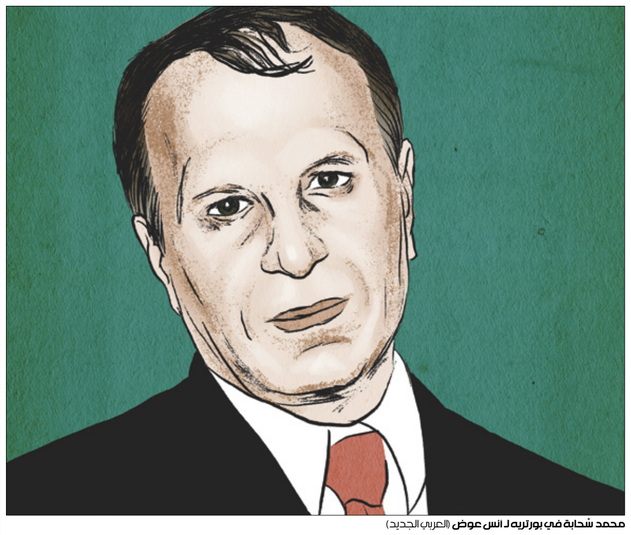

سَتأتي، أيّها الوجه الجميل،
في ينابيع الشتاء الساخنة؛
في قطرات المطر الأولى، تلك التي تُشتّت انتباه السّهران،
المطر المنهمر ببطء يعيد، قطرةً قطرةً،
الحكايةَ الخرافية ذاتها؛
ستأتي في الغصن المائل الذي يخدش الباب بحنوٍّ؛
في غِناء العصفور الذي يطلب المأوى
فيدقّ زجاجَ النافذة - آه أيّها العصفور الرقيق
أنتَ لم تجرح قلباً ولم تكسر ساقاً!

ستأتي،
حينما أرغب في مناداة شخصٍ ما صدفة،
ولكنْ يمنعني حيائي.
ستكون هنا دون أن أناديك
بينما تعوي ذئاب الهجران عواءَ القطيع عند القبر.

ستأتي، أيّها الوجه الجميل، وَهْماً مُرصّعاً بالحياة،
في كلّ ينابيع الشتاء النقية؛
ستأتي: أيّ بردٍ غريبٍ هذا الذي أشعر به بين ذراعي العالم؟

ستقولين لها

ستقولين لها
غادَرَ...
بعد أن عاش حياةً طويلة جِدّاً،
حياةً بسيطة وعبثية
كالسَّفر الذي نقبع فيه منتظرين.

ستقولين لها
تَرَك على المقعد
الجواهر التي كان سيضعها حول رقبتكِ،
وكُتُبه داخلَ عُلب السّفر من الورق المُقوّى.

ستقولين لها
تخلّى عن القصيدة التي كان يكتبها لكِ، عندما وصل إلى المقطع الذي كان سيُجهِز عليه؛

أوراقٌ متناثرة على الطاولة،
وأخرى تغرق في وعاء من الماء
كأنها أطوافٌ خفيفة
ما زالت تتشبّث بها كلماتٌ غريبة قد فارقتها الحياة.

إيقاعات

كُنتُ ظِلاً يُهديه الجِنُّ إلى الأمكنة. كنتُ أنتظركِ عند مخرج كهوف التينيري الحمراء. كنتُ ظلاً منعشاً وحارساً وعاشقاً. كنتُ أنقلكِ إلى حايك* السراب عندما كنتِ عاريةً من الأحلام، عندما لم يكن لديكِ ما تشربينه في الرِّقّ. آه! كانت الصحراء شاسعة جِدّاً ومُفكَّكة، مثل حياةٍ لم يكن لها معنًى، مثل أنينٍ لا ينتهي.

ثمّ ها أنتِ تلمسينني،
وَهَا أنا أُبعثُ:
كنتُ مُعلَّقاً في الهواء، بين صفحات الغلاف الجوّي.

كُنتُ أعرف أنّكِ أنتِ مَن عرفني خلال حادث الصّليب ذاك
حين كنتُ ظِلّاً،
قبل أن أُكون روحَ ظلّ
بعدما كنتُ عصفوراً، في الهواء الذي علّقه الصّيّادون؛
واختفى العصفور
بعدما كنتُ غُصناً سيرتاح عليه العصفور؛
واختفى الغصنُ
بعدما كنتُ شجرةً سينبعثُ منها الغصنُ؛
واختفت الشجرةُ
بعدما شرعَ كلُّ شيءٍ في التباطؤ،
إلّا الموتُ.

ماذا يهمّكِ في حقيقةٍ أو لا حقيقةِ قِصّتنا الآن وأنتِ تشعرين بمعناها
الآن وأنتِ تسمعين أصواتها وإيقاعها في الحياة؟

* حايك: لحاف تقليدي جزائري ترتديه النساء في بعض مناطق البلاد عند الخروج من البيت.

البريء

أيّها النّاسُ البُسطاء المنقسمون! يا جماعات النّهار أو يا جماعات اللّيل
يا أورفيوس المُتعدِّد:
استدرتَ أو غَذَذْتَ السَّيرَ
قَدَرُكَ هو الجحيم دوْماً
ما دمتَ لا تمتلك قوة النَّهْر الإنسانيّة
ولا ضربةَ البرق.
أَجَلْ
لا نمشي اليومَ والبارحة
لو كُنّا لا نحبّ طريقنا الطويل
لا نمشي لو كُنّا لا نشعر بوجع الرّحيل.

أيّها المشّاء اذْهَبْ! لا تستدِرْ نحوي!
قد لا تفهمُ شيئاً مِمّا أقول همسًا.
في الحشد كنتُ أنشرُ أزرقَ التخيُّل
بينما أنتَ، مثل جناحيْ قطرس بودلير
كنتَ تصرخ في المكان وتمدُّ ذراعيك.

ما قلتُه، الآن هو بعيد جدّاً،
قِسْطٌ مِن آمالنا جرفته الأمطارُ الأولى.
الثورة تمضي باندفاعها
وأنا لا أدري ما الشيءُ الذي أهربُ منه.

وتقول لي ما الجدوى إذاً من وجودكَ؟

آه! أنا أهوى الأفْضلَ العابرَ
ولستُ مع الحَفْرِ في اللّيل عَبَثاً
لستُ مع الألقاب ولا مع المال:
إنّني بِالكاد أُعلّمكَ الغناء،
سِرّاً،
في مدرسة لا تبدو كذلك.
وأصمتُ، ويمتدُّ حقلُ الممكنِ،
أو أركض كالمجنون
حامِلاً الماء للعدالة البيّنة وللعقل.

(ترجمة عن الفرنسية: راضية تومي)

بطاقة

شاعر ومترجم جزائري من مواليد وهران عام 1952. اشتغل مدرّساً ثم صحافياً مستقلّاً مختصّاً بالشأن الأدبي، وهو متقاعدٌ حالياً. نَشَر العديد من المجموعات الشعرية؛ من بينها: «أغاني العاشق الوهراني» (Les chants de l'amant oranais) و«تكريم الهائم» (Hommage à l'errant). نقل إلى الفرنسية عدداً من الروايات لكُتّابٍ جزائريين، وتُرجم بعضُ نصوصه إلى عددٍ من اللغات.

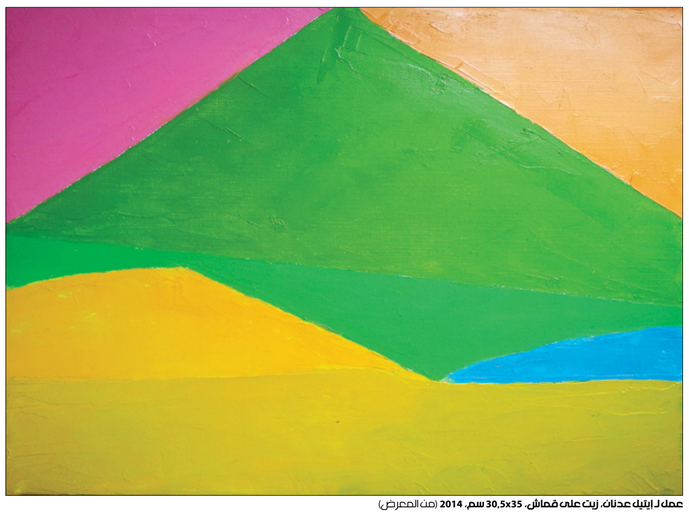

محمد شْحابة في بورتريه لـ أنس عوض (العربي الجديد)

فعاليات

يحتضن **مركز القطّان الثقافي** برام الله، عند الثامنة من مساء اليوم، حفلاً يجمع **بشار مراد** الذي يُقدّم مجموعة من الأغاني، وفرقة **زنوبيا** التي تقترح عرضاً إلكترونياً يدمج موسيقى الإلكترو بتراث بلاد الشام الموسيقي، والمغنية **نور** التي تؤدّي عرضاً تمزج فيه ألحاناً شرقية بإيقاعات حادّة.

حتى يوم غدٍ الجمعة، تتواصل سلسلة عروض مسرحية **حبيبي**، والتي انطلقت السبت الماضي وشملت ستّ مدن جزائرية. يتناول العمل موضوع العنف ضدّ المرأة، وهو من تأليف وإخراج **سيلفيا باريروس**، وإنتاج «تعاونية مسرح السنجاب» في مدينة برج منايل و«مسرح أبسارا» السويسري وفرقة «تيراب آرت» التونسية للعلاج بواسطة الفن، ويخرج نسخته الجزائرية **عمر فطموش** (الصورة).

يتواصل في فضاء «B7L9» بتونس العاصمة، حتى الثالث عشر من الشهر المقبل، معرض بعنوان **هنا وبعد**، يضمّ أعمالاً متعدّدة الوسائط تستشرف مستقبل فلسطين؛ من بينها ثلاثة أفلام لـ **لاريسا صنصور**: «الهجرة الى الفضاء» (2009)، و«مبنى الأمّة» (2012)، و«في المستقبل، أكلوا من أرقى أصناف الخزف» (2016)

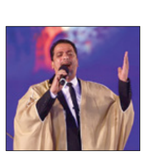

تستضيف «ساقية عبد المنعم الصاوي» في القاهرة، عند السابعة من مساء اليوم، المنشد المصري **علي الهلباوي** (1977) في حفل يُقدّم فيه، على مدار ساعتَين، **مجموعةً من الأغنيات التراثية**؛ مثل: قل للمليحة، والبنت قالت لأبوها، إلى جانب أغانيه الخاصّة مثل: مرسال لحبيبتي، أنا المصري أنا المجنون.